مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

العدد الحادي عشر مجلة اسلامية . ثقافية . تصدر سنويًا

1423 من ميلاد الرسول ﷺ الموافق 1994 ميلادية

الغارة على العالم الإسلامي

تأليف: أ.ل. شاتليه
تلخيص وتعريب: محبّ الدّين الخطيب ومساعد اليافي

مراجعة: الدكتور الصيد أبو ديب
جامعة الفاتح

منذ أن أشرقت شمس الإسلام على الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي وامتدت رقعة معتنقيه لتشمل أجزاء واسعة من قارات العالم خلال القرون التالية، والعقيدة الإسلامية هدف من أهداف الذين في قلوبهم زيغ للنيل منها ومحاربتها، وهمٌّ من هموم الكثير من القوى المعادية التي رأت فيها مصدر إشعاعات فسعت إلى طمسها، يقيناً منها أن في بقائها امتداداً لتلك الإشعاعات إلى أنحاء أخرى من العالم وأن معتنقيها يشكلون بقعة ضوء تغسل قلب الإنسان وتعم الأرض.

ومن ثم، فليس من المستغرب أن نرى في العصر الحديث، ومع بدايات النهضة الأوروبية جهوداً مضنية مكثفة، ترمي إلى إضعاف العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين، وأعمالاً دؤوبة للحد من انتشارها في بقاع أخرى من العالم. وقد اتخذت هذه الأعمال وتلك الجهود صوراً عدة وسلكت قنوات شتى

مختلفة، أبرزها وأكثرها تنظيماً وأوسعها دعماً مالياً «الإرساليات التبشيرية»، التي استهدفت تنصير أكبر عدد من المسلمين على أقل تقدير، وهدم صرح الفكرة الإسلامية بالدرجة الأولى في نفوس أصحابها عن طريق بث الآراء المضللة التي تقوض الأركان وتحقن العقول بجدليات عقيمة، لا تورث سوى الضعف التدريجي الذي يؤدي إلى الاضمحلال والزوال.

كان من وسائل هذه الإرساليات في تحقيق مراميها الخفية وأغراضها الخبيثة، نشر التعليم بفتح المدارس والاهتمام بالصحة من خلال إنشاء المستشفيات، وفي زحمة ذلك يتم بناء الكنائس وعقد الجلسات والحلقات والندوات وإصدار المجلات العلمية والثقافية والدينية، التي يتولى تحرير مادتها المستشرقون الذين درسوا الدين الإسلامي، وخبروا العادات الشرقية وتعلموا اللغة العربية وغيرها من لهجات المسلمين في بقاع العالم، بهدف الوصول إلى الإنسان المسلم في سهولة ويسر، وزرع مبادىء التبشير في عقليته وسلوكه، وما يتبع ذلك من سيطرة سياسية واقتصادية عن طريق مؤسسات وهيئات تنشأ خصيصاً لهذا الغرض.

وإذا كانت هذه الإرساليات التبشيرية قد استطاعت أن تترك بعض المظاهر المادية، مثل الكنائس والمدارس والمستشفيات والمراكز الثقافية والمطبوعات والنشرات العلمية والكتب الدينية دليلاً على وجودها في بعض البقاع من العالم الإسلامي، فإن مثل هذا الصنيع لم يكن في غفلة من المسلمين وعلمائهم ومفكريهم، الذين كانوا على بينة من حقيقته، والذين فطنوا بطريقة أو بأخرى إلى ما وراء هذا الصنيع من خطر يهدد عقيدتهم ويمس مبادىء دينهم الإسلامي الحنيف، ويشوه تعاليمه في نفوس أولئك الذين هداهم الله بنوره وحبب إليهم ما ارتضاه سبحانه وتعالى لعباده من دين هو خاتم الأديان، ألا وهو الإسلام.

لقد تصدى كثير من علماء الإسلام ومفكريه إلى محاولات تلك الإرساليات التبشيرية الدينية الفكرية، التي كانت تهدف في إصرار عنيد إلى إضعاف الفكرة الإسلامية، وتتبع بعضهم الآخر ما كان يبثه المستشرقون من

سموم، وما كانوا يدسونه من أفكار تمس جوهر العقيدة الإسلامية، ولعل تصدي الشيخ محمد عبده للمستشرق الفرنسي (هانونو) وردوده الشافية على مفتريات هذا المستشرق الفكرية التي تمس جوهر الإسلام وتعاليمه، لأبرز دليل على هذه المتابعة الحريصة التي كانت تدفع عن الإسلام كل ما يسيء إليه وتدحض ما يفتريه عليه المغرضون وما يحاول المستشرقون أن يلصقوه به من تهم وأباطيل.

والكتاب الذي بين أيدينا، وعنوانه (الغارة على العالم الإسلامي) يقدم وجهاً آخر من وجوه التصدي الذي قام به مفكرو الإسلام وعلماؤه في بداية هذا القرن، ويمثل عملاً جليلاً من تلك الأعمال التي تعكس وعيهم ويقظتهم بما يدور حولهم وما يحاك للإسلام من دسائس مغرضة.

إن هذا الكتاب هو مجموعة من مقالات وبحوث للمستشرق الفرنسي ا. ل. شاتليه (A LA Châtelier) (المتوفى عام 1626) نشرتها في الأصل «مجلة العالم الإسلامي بالفرنسية La Revue de Monde Musulman التي كان يشرف عليها المستشرق ماسينيون (1883 ـ 1962) ويرأس تحريرها[1].

وقد قام المفكر والكاتب الإسلامي المعروف محب الدين الخطيب بتلخيصها ونقلها إلى اللغة العربية بعد أن قام الأستاذ مساعد اليافي بالترجمة الحرفيّة للنص الفرنسي.

في أول الأمر نشرت ترجمة هذه المقالات والبحوث تباعاً في جريدة «المؤيد» في سنة 1330هـ (1911م) ثم في صحيفة «الفتح» سنة 1324هـ (1925م). بعد ذلك جمعت في كتاب طبع سنة 1350هـ (1931 م) في المطبعة السلفية بالقاهرة ثم كانت الطبعة الثانية سنة 1387 هـ (1957 م) وهي التي نستعرض صفحاتها في مراجعتها هذه، وقد صدرت عن الدار السعودية للنشر بجدة.

في الصفحة الأولى من هذه الطبعة أشارت الدار إلى أن «هذا الكتاب هام وخطير يتحدث فيه أعداء الإسلام بصراحة عن مخططاتهم لهدم هذا الدين

---

(1) د. نجيب العقيقي، المستشرقون، ج/ الأول، ص 227.

واستعباد أهله» وإلى قصدها من إعادة طبعه بعد مضي ربع قرن من الطبعة الأولى وهو تذكير الغافلين وإيقاظ النائمين وترديد صرخة الأستاذ الفاضل الجليل السيد محب الدين الخطيب من جديد، ص 3.

ومن خلال مقدمة الطبعة الأولى يقص علينا الأستاذ محب الدين الخطيب قصته مع هذا الكتاب، التي يعود تاريخها إلى يوم من أيام سنة 1330هـ (1911م) حين كان يشتغل في تحرير جريدة «المؤيد» لصاحبها الشيخ علي يوسف التي صدرت عام 1889م[2]. أقبل عليه زميله السيد مساعد اليافي يخبره بأن مجلة العالم الإسلامي تحولت من مجلة اجتماعية أدبية إلى مجلة تبشيرية» وأنها أصدرت عدداً ضخماً ليس فيه غير بحث واحد، وهو بحث تبشيري يدور حول ما تقوم به إرساليات التبشير البروتستانية في العالم الإسلامي وما قيل في المؤتمرات التي عقدتها تلك الإرساليات في أوقات مختلفة. وقد جعلت المجلة عنوان هذا البحث (الغارة على العالم الإسلامي) أو (فتح العالم الإسلامي) ص 6.

وفي ضوء ما جاء في توطئة جريدة «المؤيد» المنشورة في عددها الصادر في 20 ربيع الثاني 1330هـ وأوردها الكتاب (ص 8 ـ 9) ـ نقول إن مجلة العالم الإسلامي كانت في الأصل مجلة اجتماعية أدبية شهرية مصورة تصدر في باريس (1906 ـ 1926) عن الجمعية الإرسالية العلمية المغربية التي تكونت لتكون أداة عون لجامعات فرنسا السياسية والدينية والاقتصادية، وكان يكتب فيها كبار المستشرقين من أمثال المسيو ا.ل.شاتليه رئيس تحريرها وأستاذ المسائل الاجتماعية الإسلامية في إحدى جامعات فرنسا، والمسيو لويس ماسينيون الذي كان من المشتغلين بالموضوعات الإسلامية، وقد زار مصر سنة 1328هـ (1910م).

كانت هذه المجلة معروفة لدى الأوساط الثقافية في مصر. ومنذ صدورها اهتمت جريدة «المؤيد» بنشر بعض أبحاثها بعد ترجمتها ليطلع قراؤها

(2) انظر، أديب مروة، الصحافة العربية، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، 1961، ص 196.

على آراء الكتاب الفرنسيين في أدب المشرق وعاداته، وكان آخرَ ما ترجم عنها فصول للمسيو شاتليه عن «المركز الاقتصادي للعالم الإسلامي».

ويذكر الأستاذ الخطيب أن هذه المجلة اتخذت إبان صدورها المظهر العلمي ولم تفصح في أعدادها الأولى ولسنوات عن غاياتها السياسية، ولكنها كشفت عن حقيقة ذلك المظهر، وأزاحت عن وجهها قناعها المزيف بعد أن تم لفرنسا احتلال المغرب (1912م) وغزت إيطاليا طرابلس الغرب (ليبيا) في عام 1911م، ص 9.

ونتيجة لهذا التغير في المنحى الفكري للمجلة الذي لاحظه الأستاذ مساعد اليافي في عددها الضخم الذي يشكل في مجموعه بحثاً عن نشاطات إرسالية التبشير في العالم الإسلامي، كان الاقتراح بترجمة هذا البحث فصلاً بعد فصل، ونشره في جريدة «المؤيد» تباعاً، بعد إعادة صياغته من قبل الأستاذ الخطيب، إيماناً من الأستاذين اليافي والخطيب بوجوب أن يقف المسلمون كافة على ما يكيده هؤلاء المستشرقون للإسلام، وأن يكونوا على علم بما ينصب لهم من شراك وما يبيت لهم من شر، نظراً إلى أن مثل هذا العمل من واجباتهما نحو الإسلام والشرق.

ولقد أصاب الأستاذان الهدف وحققا ما كانا يرجوان وهو أن يقف العالم الإسلامي على ما يكيده له أعداؤه. يذكر ذلك الأستاذ الخطيب في مقدمة الكتاب حيث يقول:

«وما كادت هذه المقالات المتسلسلة تنتشر في مصر والعالم الإسلامي حتى كان لها وقع عظيم جداً، وبعثت اليقظة في كثير من الناس، ونقلتها عن «المؤيد» مجلات وصحف متعددة منها مجلة «المنار» في القاهرة، وجريدة الإخاء العثماني في بيروت، وضاق صدر كتاب مجلة العالم الإسلامي نفسها وأمثالهم من أنصار التبشير والاستعمار من ذيوع هذه الفصول بين المسلمين، لأنهم يودون أن يقوم التبشير بأعماله والمسلمون نيام، فدارت مناقشة بينهم وبين «المؤيد» حول هذا الموضوع»، ص 6.

بعد مقدمة وتوطئة قصيرتين بقلم الأستاذ محب الدين الخطيب، نلتقي

بمقدمة المسيو شاتليه عن إرساليات التبشير البروتستانتية، تعكس حقيقة كبرى لم يستطع شاتليه نفسه أن يخفيها، وإن حاول ذلك بكلمات الثناء على أعمال تلك الإرساليات، والإشادة بمجهوداتها في مقاومة الدين الإسلامي، ألا وهي صمود الفكرة الإسلامية في وجه تلك الأعمال وبقائها حية في قلوب معتنقيها، كانت كل الدلائل التي ساقها شاتليه تشير إليها وتؤكد عليها في وضوح:

فهو حين يستشهد بما قدمته إرسالية التبشير الكاثوليكية في بيروت، يعترف بأن كلية القديس يوسف اليسوعية التي تدير أعمال هذه الإرسالية «لا تأثير لها على النشوء الفكري في المحيط الإسلامي» على الرغم من تعاليمها التي تنشرها في سوريا ومصر وتبثها بكثافة، ص 15.

وهو حين يستشهد بنص من رسالة أرسلها إليه القسيس صموئيل زويمر منشىء مجلة العالم الإسلامي بالإنجليزية من جزيرة البحرين، في 2 أغسطس 1911م، للدلالة على مطامع وأهداف أخرى لإرساليات التبشير، إلى جانب نشر التعاليم المسيحية، وبث الأفكار الأوروبية، نجد أن هذا النص يحمل معطيات تلك الحقيقة الناصعة، وإن لم يكن ذلك القسيس على قدر كافٍ من الشجاعة والموضوعية، بحيث يفصح عنها صراحة، وإنما حاول إخفاءها بستارة شفافة من الألفاظ، فهو يقول:

«ولا ينبغي لنا أن نعتمد على إحصائيات (التعميد) في معرفة عدد الذين تنصروا رسمياً من المسلمين، لأننا هنا واقفون على مجرى الأمور ومتحققون من وجود مئات من الناس انتزعوا الدين الإسلامي من قلوبهم واعتنقوا النصرانية في ظرف خفي» ص 17.

ويبدو أن المسيو شاتليه لم يستطع أن يخفي تلك الحقيقة التي كان يحس بوجودها، فسارع إلى إقرارها بقوله: «ولا شك في أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها» ص 17.

ومن ثم فهو لم يسلم بما يقوله «زويمر» عن وجود مئات من المسلمين

اعتنقوا النصرانية وينتظرون الفرصة للجهر بها باعتبار أن هذا أمر لا يمكنه ـ كما يقول ـ البت فيه مع صديقه القسيس!! ص 18.

ويبني مسيو شاتليه رفضه هذا على معرفته بأن التنصير قد يتم مع «بعض أفراد ينتمون إلى أصل فارسي أو هندي، لأن اختلاف النحل والاعتقادات في هذه العناصر هو من مزاياها الاجتماعية، وكذلك الحال في الوسط السامي المتصل بالأصل العبراني، ولكن من النادر المستغرب أن تقع حوداث التنصير في بيوت السادة العلوية، وبين الباتان (الأفغانيين) الخلص الموجودين في بلاد الهند، أو مشايخ الهند وجيرانهم الأفغانيين والأتراك والتركمانيين والعرب الحقيقيين والبربر» ص 18 ـ 19.

وهنا يبرز سؤال يطرح نفسه بشدة، ما معنى أن يقر المستشرق شاتليه في مقدمة بحثه الذي اختار له عنواناً يكشف عن محتواه وأهدافه (الغارة على العالم الإسلامي)، بحقيقة عجز الإرساليات التبشيرية في تنصير المسلمين وتحويلهم عن دينهم الحنيف؟ ليس هذا الإقرار والتسليم من باب الجنوح إلى السلم وكفى وإنما هو ـ في الواقع ـ بمنزلة التنبيه وإعادة النظر في حسابات العمل الإرسالي التبشيري، والبحث عن تكتيك آخر يتم به الغارة على العالم الإسلامي وفتحه.

ولقد تكررت صيغة ذلك التكتيك المطلوب في أكثر من موضع من مقدمة المسيو شاتليه، وكأني به يصرخ في وجوه القائمين على أعمال الإرساليات التبشيرية في البلاد الإسلامية أن لامندوحة لهم من تبني هذا التكتيك، إن أرادوا تحقيق غاياتهم الدينية والسياسية والاقتصادية مع تقديره للطريقة التي يسلكونها ونتائجها المحدودة.

ولنقرأ صيغة هذا التكتيك كما يتصوره شاتليه الذي يقول: «ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق مبنياً قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية، ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل والتثبت من فائدته» ص 31. أي إنّ العمل الإرسالي التبشيري يجب أن يكون منطلقه في البداية التأثير على عقول النشء من أبناء الإسلام وقلوبهم، بحيث يتناول سلوكهم وجوانب التربية عندهم.

ولنتابع مجرى هذا التكتيك كما جاء على لسان شاتليه الذي يقول أيضاً: إنّ «الغرض العام الذي نحن نتوخاه، وهو غرض لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعليم الذي يكون تحت الجامعات الفرنساوية، نظراً لما اختص به التعليم من الوسائل العقلية والعلمية المبنيّة على قوة الإرادة، وأنا أرجو أن يخرج هذا التعليم إلى حيز الفعل، ليبث في دين الإسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنساوية» ص 14.

كذلك، فإن زحزحة العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها لا تتم - في نظره - «إلا ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوروبية، فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية يتحكّك الإسلام بصحف أوروبا وتتمهد السبل لتقدم إسلامبي مادي وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التي لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها» ص 17 - 18.

وهكذا شهد شاهد من أهلها!!

فعلى الرغم من أن المسيو شاتليه يقرر أن إرساليات التبشير «اشتهرت بخطتها ووفرة الوسائل التي أعدتها وتوسلت بها لمقاومة دين الإسلام» ص 15.

ولدى هذه الإرساليات «أموال جسيمة وتدار أعمالها بتدبير وحكمة» ص 16 فإن تأثيرها في البلاد الإسلامية لم يتجاوز بث الأفكار الأوروبية ونشرها!!

لذلك، فهو يستنجد بالجامعة الفرنسية لتساعد تلك الإرساليات على هدم الفكرة الدينية الإسلامية من خلال نشر اللغات الأوروبية!

بعد هذا، هل لنا من تعليق على موقف المستشرقين من الإسلام سواء أسفروا عن وجههم الحقيقي وأعلنوا عن أهدافهم صراحة، أم تلونوا بألوان المهادنة والمسالمة المؤقتة؟ هل لنا من تعليق على موقفهم من المسلمين، وإن اتخذ احتكاكهم بهم وتعاملهم معهم مظاهر شتى، مثل نشر التعليم وتأسيس المدارس وبناء المستشفيات وما إلى ذلك من الوسائل التي توحي في الوهلة الأولى بالجانب الإنساني فيها؟

من الواضح أن شغل المستشرقين والإرساليات التبشيرية الشاغل هو

الدين الإسلامي الحنيف. . . الفكرة الدينية الإسلامية التي تقلق راحتهم وتقض مضاجع من في قلوبهم زيغ، هذا من ناحية، ومن ناحية إذا كانت هذه الفكرة الدينية الإسلامية لم تحفظ كيانها كما يقول شاتليه ـ إلا بعزلتها وانفرادها، فلم هذا الضجيج؟ وعلام تدل تلك المجهودات الجبارة التي تسندها الأموال الجسيمة وتدعمها وفرة الوسائل والإمكانات مع التدبير المنظم والتخطيط المحكم؟

الجواب ببساطة. . .

﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ التوبة: 32.

إن أسلوب التكتيك الذي يجب أن يتبع لكي تهدم الفكرة الإسلامية في عقول معتنقيها لا يقف في نظر المستشرق شاتليه عند حدود تلك الأهداف التي سبق أن وضحناها، والتي لا تكتفي بتغيير أوضاع المسلمين وخصائصهم الاجتماعية لكونها غاية قصوى، وإنما ينصح الإرساليات التبشيرية بأن لا تتوقع «من جمهور العالم الإسلامي أن يتخذ له أوضاعاً وخصائص أخرى، إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية». بل عليها أن تدرك ـ في رأيه ـ أن «الضعف التدريجي في الاعتقاد بالفكرة الإسلامية، وما يتبع هذا الضعف من الانتقاص والاضمحلال الملازم له ـ سوف يفضي ـ بعد انتشاره في كل الجهات ـ إلى انحلال الروح الدينية من أساسها لا إلى نشأتها بشكل آخر» ص 19.

ومبعث إيمانه بجدوى هذا الأسلوب، تلك الحقيقة التي نراها تقلق راحته عبر كلماته وسطور كتاباته، فهو يقول «بأن سير العالم الإسلامي تدرج نحو انحلال أفكاره الدينية وزوالها، وذلك أمر طبيعي ممكن التحقيق، أما فرض تدرج المسلمين إلى اعتناق المسيحية فخارج عن حد الإمكان لأن المسلم كالمسيحي واليهودي لا تجذبه التعاليم العصرية إلى الاعتقادات الدينية» ص 19 ـ 20.

وهنا ـ مرة أخرى ـ يقع شاتليه في مغالطة رفعها إليها إحساسه الباطن إن لم يكن يقينه الراسخ وهو يكتب هذا الكلام؛ أنه يدرك تمام الإدراك أن هناك

حقيقة ملموسة واقعة؛ مرة على نفسه، غصة في حلقه، وهي تلك الأعداد التي اعتنقت الإسلام وتركت المسيحية، والتي لم تقتصر على زمرة من الناس، بل شملت فئة العلماء والمفكرين، الذين هدتهم الفطرة ورجاحة العقل وطول التأمل في الكون والحياة إلى سلامة العقيدة الإسلامية، وشمولية منهجها لكونه نظاماً حياتياً صالحاً للإنسان في كل زمان ومكان.

إنه ينكر هذه الحقيقة ـ في الظاهر ـ بل ويتخطاها ليساوي المسيحي بالمسلم في تمسكه باعتقاده الديني ومقاومته للتعاليم العصرية!! ثم هل هو يسلم حقاً بأن للإسلام تعاليم عصرية يطرحها في بداية هذا القرن حتى تكون مصدر جذب واهتمام المسيحي واليهودي معاً!!؟

ونأتي على بقية مقدمة المسيو شاتليه، لنجد فيها بعض الخيوط الأخرى المتعلقة بذلك التكتيك، الذي ينادي به، وينصح باتباع خطواته لهدم الفكرة الإسلامية ونكتشف بعض الوسائل الأخرى التي يستخدمها الأسلوب التبشيري، وتكمن في مراجعة الأعمال التبشيرية وتحليل نتائجها، حيث يقول: «إنه مهما اختلفت الآراء في نتائج أعمال المبشرين من حيث الشطر الثاني من خطتهم وهو (الهدم) فإن نزع الاعتقادات الإسلامية ملازم دائماً للمجهودات التي تبذل في سبيل التربية النصرانية» ص 20.

أما الخيط الآخر فهو مراعاة التوقيت المناسب للعمل التبشيري حتى يؤتي أكله وتجنى ثماره، إذ يقول: «والتقسيم السياسي الذي طرأ على الإسلام سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوروبية، إذ من المحقق أن الإسلام يضمحل من الوجهة السياسية، ولن يمضي غير زمن قصير حتى يكون الإسلام في حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوروبية» ص 20.

وشاتليه حين يشير إلى التقسيم السياسي الذي طرأ على العالم الإسلامي وليس على الإسلام!! إنما يقصد تقسيم السلطنة العثمانية بوصفها وارثة الخلافة الإسلامية، وإلى حين أصبح العالم الإسلامي «هدفاً لغلطات فتيان جمعية الاتحاد والترقي، الذين ورثوا عبد الحميد واستعانوا بوسائله السياسية بعد أن خلعوه، ولم تكن أمامهم وسيلة لإنقاذ السلطنة العثمانية والخلافة

الإسلامية غير تنظيم حكومة مؤتلفة من ولايات إسلامية متحدة، وكل وسيلة غير هذه كانت تؤدي إلى نتيجة لا بد منها وهي تقسيم المملكة» ص 21.

إن شاتليه ـ بلاشك ـ يبارك في قرارة نفسه خطوات هذه الجمعية التي اتخذتها بعد خلعها السلطان عبد الحميد الثاني سنة 1908 والتي أدت بالفعل إلى تفكيك السلطنة العثمانية وزعزعة أركان الخلافة الإسلامية على الرغم من تنظيمها «حكومة مؤتلفة من ولايات إسلامية متحدة» وهي الخطوة التي رآها شاتليه الوسيلة الوحيدة التي لا مفر من الاستعانة بها لإنقاذ السلطنة العثمانية وبالتالي الخلافة الإسلامية بوصفها رمزاً لها.

إن الهدف التبشيري الكبير الذي قام به فتيان جمعية الاتحاد والترقي نيابة عن جهود المستشرقين، وأعمال جمعيات الإرساليات التبشيرية، تحقق بهذه الوسيلة التي اعتقد شاتليه أنها أنقذت السلطنة العثمانية والخلافة الإسلامية، وإن «كل وسيلة غير هذه كانت تؤدي إلى نتيجة لا بد منها وهي تقسيم المملكة». أما الخيط الثالث والأخير من هذا التكتيك فهو ذلك التودد المزيف للمسلمين، وإظهار الحرص على مصلحتهم العامة، في الوقت التي تكشف فيه الكلمات والسطور إضمار الانقضاض على العالم الإسلامي وفتحه والدعوة إلى المزاحمة والمسابقة للسيطرة على أهم الأسواق البشرية على حد تعبير شاتليه؛ استمع إليه حين يقول:

«قد يظهر لإخواننا المسلمين أننا نتصرف في مستقبلهم بحرية وبلا تكليف ولكن من منهم ينكر أن العالم الإسلامي أصبح هدفاً لغلطات فتيان جمعية الاتحاد والترقي»ص 20/ 21؛ أو قوله «لم نقصد غير تقرير حقيقة راهنة عندما نبهنا المسلمين من قراء مجلتنا ـ قبل احتلال طرابلس الغرب بستة أشهر ـ إلى ما تخبئه الأيام للأستانة التي تقع بين مخالب ألمانيا وروسيا» ص 21.

ولكن سرعان ما ينسى هذا التودد والحرص على مصلحة إخوانه المسلمين، حين يعقب على ذلك بقوله: «إن إرساليات التبشير البروتستانية الأنجلوسكسونية تعلق أهمية كبرى على الحال الجديدة التي ظهر بها العالم الإسلامي» ص 21.

وأخيراً؛ يبدي شاتليه إعجابه بأعمال إرساليات التبشير الألمانية ويبارك مؤتمري سنة 1906 و1911 اللذين عقدا بمشاركة إرساليات التبشير البروتستانية الأنجلوسكسونية، وإرساليات التبشير الألمانية، بهدف تقوية الأواصر وتمتين الروابط فيما بينهما، وتوحيد الجهود من أجل تحقيق الغاية الكبرى، ألا وهي زعزعة العقيدة الإسلامية في نفوس أصحابها؛ داعياً رجال فرنسا لمزاحمة هذه الإرساليات والعمل على أن تدخل فرنسا حلبة المسابقة في نشر التعليم النقلي بوصفه خطة جديرة بالاهتمام، لذلك يأمل من ذوي الشأن في إرساليات التبشير البروتستانتية ألا ينكروا علناً انتهاج هذه الخطة التي هي خطة مجلته لأنهم ـ كما يقول: «أعلم الناس بعواطفنا وشعورنا نحو عملهم» ص 23.

حقاً؛ إنها وقفة طويلة مع مقدمة المسيو شاتليه (ص 13 ـ 23) رأينا أن نقفها لأنها تضيء متابعتنا لبقية الكتاب، وتساعدنا في فهم وتحليل ما جاء فيه من عرض تاريخي للعمل التبشيري في بعض الأقطار العربية والإسلامية؛ فهذه المقدمة ـ في نظري ـ خلاصة الكتاب الذي بين أيدينا، والكلمة المبتغاة من إنشاء الفصول التي جاءت في أعقابها (ص 27 ـ 26).

بيد أن ذلك لا يمنعنا من تلخيص فحوى هذه الفصول التي افتتحت ببحث عن (تاريخ التبشير)، اعتمدت مجلة العالم الإسلامي في عرضه على كتاب «مشروع التبشير» الذي ألفه المستر (أدوين بلس) البروتستانتي؛ وقد أعاد طبعه بعد «أن زاد عليه زيادات أخرى وسماه (ملخص تاريخ التبشير)، ذكر فيه إرساليات التبشير البروتستانتية على اختلاف نزعاتها ومشاربها منذ نشأتها في القرون الغابرة، إلى أيام الطبعة الثانية للكتاب، مع بيان لما بين هذه الإرساليات من ارتباط وتضامن» (ص 27).

وقد أثنت المجلة على هذا الكتاب وعدته نفيساً في بابه، لأنه يتسنى لقارئه أن يقف على حقيقة أعمال الإرساليات البروتستانتية في بلاد الإسلام حتى أواخر القرن التاسع عشر، وقامت بتقديم ملخص لمحتوى قسميه (ص 27 ـ 45)؛ جاء القسم الأول تحت عنوان (تاريخ التبشير العام وطرائقه)، والثاني حمل عنواناً أكثر وضوحاً (موقف الإرساليات البروتستانتية وأعمالها في

البلاد الإسلامية). ومن العرض السريع للقسم الأول نعلم أن تاريخ التبشير المسيحي يرجع إلى صدر النصرانية ومبتدأ تأسيسها؛ وأن «ريمون لول الإسباني» أول من تولى التبشير بالنصرانية في القرون الوسطى بعد أن أخفقت الحروب الصليبية في مهمتها، وأن المبشرين الكاثوليك لعبوا دوراً كبيراً في ثورة البوكسر الصينية، وتدخلوا في شؤون القضاء، غير أن المسلمين، كما يقول المؤلف هناك، كانوا ينظرون إلى الطقوس والاحتفالات الكاثوليكية باشمئزاز!! وقد وصفت المجلة هذا القول بأنه لا يشف عن محبة مسيحية!! كما نعلم أنه كان هناك تنظيماً تسير عليه إرساليات التبشير في القرون الوسطى في الهند والجزائر والسند وجاوه، وأنه تم اختلاط المبشرين بالمسلمين منذ ذلك الحين، وأن اهتمام هولندا بالتبشير في جاوه يعود إلى أوائل القرن الثامن عشر، وأن عدد الذين تنصروا سنة 1721 بلغ 100 ألف وكان عدد النصارى في سيلان (وكانت يومئذ تحت سلطة هولندا) 424 ألف سنة 1722.

وهنا يتساءل المؤلف عما بقي منهم الآن؟ فيجيب بقوله «إن المسلمين كانوا فيها قليلين فصاروا الآن فئة كثيرة» ص 31 تلك هي إذاً النتيجة!!.

ومن المعلومات التي يقدمها هذا القسم أن البارون «دو ويتز» عمل على تحريك ضمائر النصارى سنة 664 لتأسيس مدرسة (كلية)، تكون قاعدة لتعليم التبشير المسيحي، وتعلم فيها لغات الشرق للطلاب الذين يناط بهم أمر التبشير، على أن يعهد إلى الأروام بمسؤولية تبشير الأتراك، إلا أن هذا المشروع كان نصيبه الإخفاق الذريع.

ونعلم أيضاً من سرد الجزء الأخير من هذا القسم، الذي يتناول تاريخ تنظيم الإرساليات التبشيرية البروتستانتية في القرنين الأخيرين، وإنشاء الجمعيات المسيحية العديدة، أنه على الرغم من كثرتها لم يتمكن المؤلف من الإشارة إلى نتائج أعمالها في بلاد الإسلام، وتوضيح مدى تأثيرها وإنما اكتفى بتاريخ نشأتها في ديار المسلمين ونوعية اهتماماتها وخدماتها. كما تبين لنا أن وسائل الإرساليات كانت حتى وقت متأخر من القرن الثامن عشر، منحصرة في بناء الكنائس وإنشاء المدارس لتعليم التبشير المسيحي، وتدريس لغات

الشرق، وتأسيس الجمعيات التبشيرية، بالإضافة إلى تأسيس إرساليات تبشير طبية تلحق بالإرساليات العامة وقد «تألفت لها أقسام نسائية وأرسل بعضها إلى الهند والأناضول» ص 33.

بعد ذلك تلخص المجلة القسم الثاني من كتاب أدوين بلس «ملخص تاريخ التبشير وهو الخاص ببيان مراكز تنظيم الإرساليات وإدارة أعمالها في كل قارة ينتشر فيها الإسلام وقد جاء في تركيز واضح، فبخصوص أفريقيا تقتبس المجلة فقرة المستر (بلس) التي يقول فيها: «إنّ الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طرق تقدم التبشير بالنصرانية في أفريقيا، والمسلم فقط هو العدو اللدود لنا وإن الخصم المعارض هو الشيخ أو الدرويش صاحب النفوذ في أفريقيا» ص 36.

ثم يستعرض هذا القسم الدعوات الدينية التي عرفت في القرن التاسع عشر مثل، المهدية في السودان، والسنوسية في ليبيا، وما يقوم به الأزهر في مصر من حماية للإسلام في وجه التبشير المسيحي، ولكن كان هذا الاستعراض في صورة مضللة، فعلى سبيل المثال يذكر أن الشيخ يبث «في الأهالي أن المهدي ينتظر ظهوره وينشر الإسلام في كل الأقطار، وقد ظهر مهدي منذ سنتين فحارب الإنجليز ثم توفي، فتولى الأمر بعده خليفة غلب على أمره، وأما الشيخ السنوسي العدو الألد للنفوذ الفرنسي والإنجليزي فله تقاليد أخرى.. إن طلبة الأزهر يعتقدون بالمهدي وأما المغاربة فلا يزال يدور في خلدهم إمكان الجهاد» ص 36 ـ 37.

ومن خلال استعراضنا لهذا القسم نقف على الجهود المكثفة التي كانت إرساليات التبشير تبذلها تجاه أفريقية، منذ دخولها لأول مرة في القرن الخامس عشر، أي في أثناء الاكتشافات البرتغالية كما هو معروف لدى المشتغلين بالتاريخ. ونعلم أيضاً أن جمعية الكنيسة البروتستانية لم تهتم بالتبشير في أفريقية العربية، ولم تكثف جهودها إلا منذ سنة 1804، حيث عملت على محاربة سلطة الإسلام المتدفق في النيجر الغربية بمؤازرة الأسقف (صموئيل كروتز) الزنجي. ص 37.

وفي هذا القسم أيضاً نتبين كثرة جنسيات الإرساليات التبشيرية وتعددها، بداية من نشاط (ريمون لول) الإسباني الذي سبقت الإشارة إليه، ومروراً بمبشري هولندا وانتهاء بالارساليات الدانمركية والإنجليزية والألمانية والفرنسية والأمريكية والسويدية والنرويجية والسويسرية والاسكوتلندية. لقد انتشرت هذه الإرساليات التبشيرية المتعددة الجنسيات في أفريقية الشرقية، وأرسل المبشرون إلى الحبشة وأفريقيا الغربية، حيث هبطوا مدينة (ممباسة) وأوغندة، وإلى أفريقيا الوسطى التي توافدوا عليها عقب بعثة (لفنستون) و(ستانلي) سنة 1878م بدون انقطاع. «أما بلاد المغرب فلها مبشرون خاصون بها ترسلهم (جمعية تبشير شمال أفريقية) وهم منتشرون في المغرب والجزائر وتونس وسائر بلاد المغرب» ص 39.

ثم تلخص المجلة أعمال التبشير في آسيا الغربية التي كانت للمبشر (هنري مارتين) يد طولى في إرسال المبشرين إليها، ووضحت كيف أن الإرساليات عمت الأناضول وفلسطين، وفتحت لها مراكز في أزمير والقسطنطينية بتركيا وفي بيت المقدس، وأنه في سنة 1846م تأسست الكنيسة البروتستانتية في الأستانة التي صارت «مركزاً عاماً آمناً لأعمال المبشرين» ص 14، كما وضحت كيف عمل المبشرون على «ترجمة الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) إلى كل لغات الشرق بأسلوب سهل يتسنى فهمه لكل الطبقات» ص 42.

وعلى الرغم من كل ذلك، تشير المجلة إلى ما جاء في كتاب (بلس) عن موقف الحكومات الإسلامية من إرساليات التبشير في بلاد آسيا الغربية، الذي كان يختلف باختلاف هذه البلاد، حيث نقرأ أن «القبائل المستقلة في بلاد العرب عدوات لدودات للمبشرين، «وأن» الحكومة العثمانية تبدي ضروب الاستبداد نحو المبشرين على اختلاف مذاهبهم، بسبب الدور السياسي الكبير الذي يمثله نفوذ المبشرين على مسرح المسألة الشرقية» ص 41 ـ 42.

كما نقرأ مخاوف المستر (بلس) من «الدور الذي ستقوم به الدولة العثمانية في الحوادث المقبلة! (يعني تحرشات لاحتلال ليبيا) ما دامت القبائل

السنوسية الشديدة البأس متجهة نحو السلطنة العثمانية، التي يحكمها أمير المؤمنين وفيها بيضة الإسلام، ومثل السنوسيين الأمم الأخرى البعيدة عن الأستانة، مثل بخارى وخيوة والهند والبلاد الإسلامية الشاسعة» ص 42.

كما تستعرض المجلة تاريخ التبشير وانتشار الإرساليات في الهند، وقد تعددت جنسياتها هي أيضاً بين إنجليزية وأمريكية واسكوتلندية وهولندية ونرويجية وغيرها، موضحة كيف أن مبشريها «قد وقعوا في الحيرة ـ في بادىء الأمر ـ لأنهم لم يعلموا بمن يبدأون التبشير، وهل يسهل بث النصرانية في البراهمي أو المسلم المتنور أو الهندي العامي؟ ثم اهتدوا إلى التقاط الأطفال الذين يعضهم ناب الفاقة والفقر؛ فيحسنون إليهم ويستجلبونهم نحوهم» ص 43.

أما في جزائر الملايو التي اعتنق أهلها الإسلام في القرن الثالث عشر؛ فقد ذهبت إرساليات كثيرة للتبشير بالنصرانية (ص 44). كذلك يعود تاريخ التبشير في مملكة الصين إلى بدايات القرن التاسع عشر؛ فقد أشار كتاب (بلس) إلى أن مملكة الصين التي يوجد بها مسلمون كثيرون ـ وإن كانوا بعددهم قليلين بالنسبة إلى مجموع سكان البلاد ـ عرفت إرساليات التبشير في سنة 1813. ص 45.

أما عن بقية الكتاب الذي نستعرضه فهو تلخيص لما دار في ثلاثة مؤتمرات تبشيرية عقدت ما بين سنة 1906 ـ 1911؛ يقدم معلومات هامة عن نتائجها. ففي الصفحات (47 ـ 74) نجد لمحة عامة عن أعمال مؤتمر القاهرة التبشيري سنة 1906 الذي ابتكر فكرته القسيس (زويمر)، رئيس إرسالية التبشير العربية في البحرين؛ ومن خلال هذه اللمحة نعرف أن هذا المؤتمر عقد يوم 4 إبريل 1906 في منزل عرابي باشا في باب اللوق بالقاهرة، وأن عدد الحاضرين 62 بين رجال ونساء؛ يشكلون جميعهم مندوبي إرساليات التبشير الأمريكية والإنجليزية والاسكوتلندية والألمانية والهولندية والسويسرية والدانمركية. وقد تضمن جدول أعماله الموضوعات التالية:

1 ـ ملخص إحصائي عن عدد المسلمين في العالم.

2 ـ الإسلام في أفريقية والسلطنة العثمانية والهند وفارس والملايو والصين.

3 ـ النشرات التي ينبغي إذاعتها بين المسلمين المتنورين والمسلمين العوام.

4 ـ التنصر.

5 ـ الارتداد.

6 ـ وسائل إسعاد المتنصرين المضطهدين.

7 ـ شؤون إسلامية نسائية.

8 ـ تربية المبشرين والعلاقات بينهم وكيفية التعليم في الإسلام.

أما عن البحوث والمحاضرات التي تناولت هذه الموضوعات وقدمت إلى هذا المؤتمر، فقد جمعت في كتاب كبير حمل عنوان (التبشير بالنصرانية بين المسلمين)، كما وضع رئيس المؤتمر (زويمر) كتاباً آخر فيه بعض التقارير عن التبشير سماه (العالم الإسلامي اليوم) ص 51.

وباستعراض الكتاب الأول الذي اعتنى بجمعه ونشره القسيس (فليمنغ FILMING) الأمريكي، والذي كتب عليه عبارة (نشرة خاصة)، قاصداً بذلك أن يطبع ليتداول بين أيدي فئة خاصة من رجال التبشير لا ليطلع عليه كل الناس. باستعراض هذا الكتاب نتبين أنه يحوي خمسة فصول؛ تناول كل فصل منها مبحثاً من المباحث التي دار النقاش حولها في مؤتمر القاهرة، وما انتهت إليه هذه المباحث من نتائج وقرارات، وخاتمة وجه (فليمنغ) من خلالها ندائين «استنهض بأحدهما رجال النصرانية ليجمعوا قواهم ويتضافروا بأعمال مشتركة وعمومية فيستولوا على أهم الأماكن الإسلامية، والنداء الثاني خاص بأعمال النساء» ص 52.

لقد بحث الفصل الأول في «الطريقة التي ينبغي انتهاجها في التبشير، وعما إذا كان مفيداً ضم إرساليات تبشير المسلمين إلى إرساليات تبشير الوثنيين، وفضل بقاءهما منفصلين»، في حين تحدث الفصلان الثاني والثالث ـ

وهما أخطر فصول هذا الكتاب ـ عن «الصعوبات التي تحول دون تبشير المسلمين العوام، وذكر الوسائل التي يمكن استجلابهم بها وتحبيب المبشرين إليهم»، وعدداأهم هذه الوسائل، وقد اختتما بإقرار أن أكثر المسلمين الذين تنصروا إنما هم من العامة والأميين.

أما الفصل الرابع فقد خصص لذكر الصعوبات التي تقف في سبيل تبشير المسلمين المتنورين، وبحث الوسائل التي يكون لها تأثير ـ ولو قليلاً ـ على الناشئة الإسلامية لتدرك الأمور الاجتماعية والخلقية والأدبية، ص (54). وقد أشير في هذا الفصل أنه على الرغم من مضي ثلاث سنوات على تنفيذ بعض تلك الوسائل، مثل إلقاء المحاضرات في موضوعات لا تتطرق للدين، رغبة في جلب قلوب المسلمين، وإنشاء مجلة أسبوعية فيها باب غير ديني، يبحث في الشؤون الاجتماعية والتاريخية، وتأسيس مكتبة لبيع الكتب بأثمان زهيدة بغرض استجلاب الزبائن ومحادثتهم في أثناء البيع.. على الرغم من كل هذه الوسائل فقد كانت النتائج سلبية في مجال التنصير إذ الأمر لم يتعد معرفة أحوال البلاد وأفكار المسلمين وشعورهم وعواطفهم وميولهم، والحصول على ثقة عدد من المسلمين بهم، والتحقق بأماكن الدخول إلى قلوب المسلمين!! ص 55.

وانتهى هذا الفصل بوقفة تناولت تحرك المبشرين في ضوء تلك النتائج، وهو تحرك اتخذ مساراً عملياً مثل مساعدة «الشبان المسلمين في تأسيس جمعية الغرض منها إيجاد صلة وتقرب بين الطبقة المتعلمة والطبقات المتعددة، التي تتألف منها الأمة، وإنماء روح الاتفاق» ص (56). وهي مجهودات خصت بها الشبيبة الإسلامية التي تعلمت على الطريقة الأوروبية وفي مدارس الحكومة!! «أما الذين تعلموا على الطريقة الشرقية في الأزهر وما يماثله، فلم يتكلم أعضاء المؤتمر عنهم إلا بعض اقتراحات ونظريات» ص 57. وقد انصبت هذه الاقتراحات والنظريات حول الأزهر ودوره، ومدى إقبال الألوف عليه من الشبان المسلمين في كل أقطار العالم، وسر نفوذه منذ ألف سنة إلى الآن!! مما يشكل كل هذا خطراً يهدد كنيسة المسيح!! ومن ثم كان

الاقتراح» بإنشاء مدرسة جامعة نصرانية تقوم الكنيسة بنفقاتها، وتكون مشتركة بين كل الكنائس المسيحية في الدنيا على اختلاف مذاهبها، لتتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة، وتتكفل هذه المدرسة الجامعة بإتقان تعليم اللغة العربية» ص 57 ـ 58، وقد وقع الاختيار على مصر لتكون مركز عمل المبشرين والمكان الذي يحتضن إنشاء هذا المعهد المسيحي لتنصير الممالك الإسلامية.

وتناول الفصل الخامس والأخير ما دار في المؤتمر من نقاش حول النشرات التي ينبغي للمبشرين إذاعتها لتنصير المسلمين، ومسألة إرساليات التبشير الطبية، ووجوب الإكثار منها «لأن رجالها يحتكون دائماً بالجمهور ويكون لهم تأثير في المسلمين أكثر مما للمبشرين الآخرين» ص 60 موضحاً ذلك بنموذج من نشاطات الأطباء المبشرين، ونجاحاتهم في تنصير بعض مرضاهم الذين يعالجون في مستشفيات الإرساليات.

كما تناول هذا الفصل موضوع (الأعمال النسائية في التبشير)، الذي أولاه أعضاء المؤتمر اهتماما كبيراً، لأنه خاص بنصف مسلمي العالم، ووضح كيف أن السيدات المبشرات قد تناوبن «الخطابة في أخبار نجاحهن في المناطق التي انتدبن للتبشير فيها» مع حثهن المبشرين على الرفق بالمرأة المسلمة، وأشرن إلى أن المدارس والعيادات الطبية وزيارة قرى الفلاحين، وسائل ناجعة في نشر النصرانية بين طبقات الناس. كما تحدث المؤتمر عن موضوع تربية النساء اللاتي يتطوعن للتبشير، وعن «الأركان التي يشترط توافرها في الشخص المنصر أو النصراني الشرقي، الذي يدخل في المذهب البروتستاني» وقد تساءل الحاضرون عما إذا كان المسلم المتنصر أهلاً لنشر النصرانية؟.

بعد ذلك ناقش المؤتمر شأن «المتنصرين المضطهدين، ووسائل استخدام المخلصين منهم» ص 66، فضلاً على تحديد شروط التعميد أو الشروط التي يجب أن تتوافر في المسلم المتنصر ليكون أهلاً للتعميد!! وتعرض إلى موضوع يتناول الكيفية التي يتقرب المسلمون بها من التنصير في ضوء ما تؤكده نتيجة الأبحاث التي أجراها القسيس (هاريك) في بلاد السلطنة العثمانية وخلاصتها «أن لا فائدة لطريقة المناظرة والجدل، أما ترجمة الإنجيل

وكتب التبشير إلى اللغة التركية بدون مناقشة ومجادلة فكانت أكثر فائدة وأعم نفعاً» ص 68.

كما خاض المؤتمر في موضوعات تبشيرية كثيرة «منها كيفية عرض العقيدة النصرانية والمناظرة فيها، والوسائل التي يجب التدرع بها لنشر مبادئها والتحكك بالنفوس الإسلامية، والوقوف أمام صبغة الإسلام والصفات التي ينبغي أن يتصف بها مبشر المسلمين بالنصرانية والإنجيل» 70 ـ 71. وتوقف المؤتمر عند الموضوع الأخير حيث طرح بعض القساوسة والأساتذة تصوراتهم، وما يجب أن يتحلى به المبشر الذي يعد نفسه لمجادلة المسلمين في أمور الدين.

بهذا اختتم مؤتمر القاهرة لعام 1906 مناقشاته التي استهدفت تبشير المسلمين وتنصيرهم بشتى الوسائل وكل الطرق.

أما الصفحات (75 ـ 105) فإن الكتاب ـ الذي بين أيدينا يستعرض فيها ما جاء في كتاب (العالم الإسلامي اليوم) الذي نشره القسيس (زويمر) رئيس إرسالية التبشير في البحرين بمؤازرة زملاء له وتشجيعهم. في هذا الكتاب جمعت «تقارير ومباحث تاريخية واجتماعية كتبها المبشرون عن حال المسلمين القاطنين في مناطقهم التبشيرية، وتتلو هذه التقارير خلاصة من أعمال المبشرين التي قاموا بها في الأصقاع المختلفة وما نتج عنها من انتشار الدين المسيحي» ص 77.

ضم هذا الكتاب مقدمة ألحَّ فيها كاتبوها على ضرورة تنصير المسلمين الذين أهمل المبشرون أمرهم، وأشاروا إلى الفكرة التي تبناها إمبراطور أهم إمبراطورية أوروبية في خطاب ألقاه على بعض المبشرين «كانت تشف عن الحكم على الإسلام من الوجهة الخلقية عامة والدينية خاصة». وفحوى هذه الفكرة «أنه لم يسبق وجود عقيدة مبنية على التوحيد أعظم من عقيدة الدين الإسلامي، الذي اقتحم قارتي آسيا وأفريقيا الواسعتين، وبث في مائتي مليون من البشر عقائده وشرائعه وتقاليده، وأحكم عروة ارتباطهم باللغة العربية فأصبحوا. . . كسلسلة جبال تناطح السحاب وتطاول السماء، مستنيرة ذرواتها

بنور التوحيد، ومسترسلة سفوحها في مهاوي تعدد الزوجات وانحطاط المرأة». ص 78.

في ضوء هذه الفكرة قرر ناشرو الكتاب «أن الكنيسة المسيحية ارتكبت خطأ كبيراً بتركها المسلمين وشأنهم، إذ ظهر لها أن أهمية الإسلام في الدرجة الثانية بالنسبة إلى ثمانمائة مليون وثني، رأت أن تشتغل بهم «وأنها بذلك» لم تعرف عظمة الإسلام وحقيقة قوته وسرعة نموه إلا منذ ثلاثين سنة فقط» ص 78 ـ 79. وضمت هذه المقدمة ببعض التنبيهات والنصائح للمبشرين تركزت في مجملها على كيفية التعامل مع المسلمين.

أما الفصل الأول من كتاب (العالم الإسلامي اليوم) فقد تحدث عن الإسلام في مصر، وتضمن ملخصاً لأعمال المبشرين البروتستانت في هذا القطر العربي، والوسائل التي يتدرعون بها، والنتيجة التي توصلوا إليها، وأهم معاهد التبشير فيه وهو الذي أسسته جمعية اتحاد مبشري أمريكا الشمالية سنة 1854، وما استطاعوا أن يتحككوا بواسطته بالمسلمين، وهو مؤلفاتهم ومدارسهم. فقد نشروا منذ 35 سنة بعضها ووزعوا بعضها الآخر، إلى جانب ما وضعوه من مؤلفات في الرد على الذين طعنوا في النصرانية، وما أقاموه من محاضرات عامة «مرتين في كل أسبوع للموازنة والمناظرة بين الإسلام والنصرانية يحضرها عدد عظيم من المسلمين ويسمح لهم أن يتكلموا» ص 81.

ويكشف هذا الفصل عن بعض الحقائق المقرونة بلغة الأرقام حيث يذكر أنه «في مدارس المبشرين في القطر المصري 3000 طالب مسلم، وخمس هؤلاء من البنات المسلمات».

كما يكشف عن محصلة المجهودات التي بذلت منذ بداية التبشير إلى سنة 1906، التي عقد فيها مؤتمر القاهرة وهي «أنه تنصر مائة وخمسون مسلماً، وأهم ما وقع من ذلك سنة 1903، وسنة 1904 فقد تنصر في الأولى 14 شخصاً وفي الثانية 12» ص 82 ثم عرض هذا الفصل ما تأسس في مصر من معاهد علمية للتبشير في السنوات 1882 و1892 و1898، وأشار إلى أهم وظائفها الذي كان تنصير المسلمين عن طريق فتح فروع لها ومدارس لتعليم

الإنجيل بوجه خاص. وكانت محصلة هذه المعاهد ونتائج مساعي مبشريها والعاملين بها هي تنصير قليل من الشبان والفتيات على الرغم من الوسائل المتعددة والمتنوعة، والجهود المكثفة لبث مبادىء النصرانية بين المسلمين!!. وينتهي الحديث في هذا الفصل عن نشاطات إرساليات التبشير في مصر بالاعتراف بأن هذه الإرساليات تواجه عقبة وحيدة جعلتها عاجزة تماماً عن إزالة «الضرر الذي يحفُّها من مقاطعة المسلمين للمتنصرين وعدم إصغائهم لهم» ص 84.

أما الفصل التالي فقد تناول الإسلام في الهند، وبخاصة «عن حالة التبشير في شمال الهند وعن انتشار الإسلام ووسائط نشره، وأشار إلى دراويش جمعية (انجمن إسلام)، وذكر التقدم الفكري والاجتماعي الذي حدث في هذه الجهات، وأن الإسلام عرقل سير هذه الميول» ص 85. كما أشار إلى تاريخ التبشير في الهند الذي ابتدأ منذ مائة سنة في لاهور، وذلك بفتح «باب الجدال في مسائل التوحيد والتثليث وألوهية المسيح، وصحة الكتب المقدسة فتسبب عن ذلك قيام (أحمد بن زين العابدين) وتأليفه كتاب (الأنوار الإلهية في دحض خطا المسيحية)» ص 85. كما اتخذ التبشير صوراً متعددة مثل التبشير بالإنجيل بترجمته إلى الفارسية والأوردية، وترجمة بعض الكتب من الفارسية إلى الأوردية، التي أثارت محاولات شديدة مع علماء الإسلام في بعض المدن الهندية، بقصد زلزلة «إيمان كثير من المسلمين، وإن يكن الذين تنصروا منهم قليلاً عددهم» ص 86.

ويذكر هذا الفصل أنه «وفي شمال الهند الآن ما لا يقل عن 12 جمعية تبشيرية بين إنجليزية وأمريكية وأسترالية، وكلها ترمي إلى غاية واحدة» وهي تنصير المسلمين. لقد اجتهدت هذه الجمعيات في تحقيق هذه الغاية منذ أن وطئت البلاد وكانت النتيجة ـ كما ترصدها تقارير الإرساليات ـ «إن من المسلمين المتنصرين من وصل إلى درجة المبشر. . . أما عدد المسلمين المتنصرين فلا تمكن معرفته من الاعتماد على الإحصائيات، ولكن عثرنا في تقارير سنة 1904 على أسماء إسلامية صار أصحابها قسيسين مبشرين. وعدد

المبشرين الذين من هذا القبيل 194. ويرى القارىء أسماء إسلامية في قوائم أعضاء اللجان الدينية في (شاور) وغيرها» ص 88.

واضح أن حقيقة الأرقام مشكوك فيها ذلك أن الغرب الحريص على الإحصائيات والتوثيق والتدوين لم يتمكن هنا من معرفة الرقم الصحيح والدقيق لعدد المسلمين المتنصرين، وتعترف التقارير بأن الاعتماد على الإحصائيات لا يجدي!! وأن القارىء من قوائم أعضاء اللجان الدينية يرى أسماء إسلامية ويعجز عن إحصائها!!.

على أي حال، إن الحديث في هذا الفصل عن واقع حال الإرساليات التبشيرية في الهند ينتهي إلى القول بأن ثمرة التبشير في أواسط الهند «أضعف بكثير من ثمرة التبشير في شمال الهند على الرَّغم من اجتهاد جمعية (تبشير الكنيسة) التي في (مدراس وحيدر آباد) على الرَّغم من تفاني إرسالية (زنانة) التبشيرية التابعة للكنيسة الإنجليزية. وكل المتنصرين في أواسط الهند عدد قليل في جهتين أو ثلاث. وفوق ذلك فإنه يكتب في هذه الجهات انتقال النصارى إلى الإسلام لأسباب مالية ومصالح شخصية، وجمعية (أنجمن إسلام) تنجح دائماً بما لها من النشاط في حمل عدد كبير من الهندوس والمسيحيين على اعتناق الإسلام» ص 88 ـ 89.

يلاحظ في الفقرة السابقة خيبة الأمل والنتائج الوخيمة لنشاطات التبشير في أواسط الهند على الرغم من اجتهاد الجمعيات، وتفاني الإرساليات، وأن المتنصرين عدد قليل في جهتين أو ثلاث!! وفي المقابل كثرة انتقال النصارى إلى الإسلام واعتناق عدد كبير من الهندوس والمسيحيين للدين الإسلامي بفضل نجاح جمعية إسلامية واحدة فقط!!.

كما يلاحظ أن انتقال النصارى إلى الإسلام ـ في نظر تقارير الإرساليات ـ كان لأسباب مالية ومصالح شخصية، وليس نتيجة إقناع واقتناع بعقيدة هذا الدين وسماحته، في حين أن تنصير المسلمين هو رضوخ للحقيقة وموافقة وتسليم بمبادىء النصرانية!! وأن دراويش جمعية (أنجمن إسلام) قد نجحوا في حمل عدد كبير من الهندوس والمسيحيين على اعتناق الإسلام، بسبب

نشاطهم الذي لم توضح التقارير وسائله، وهي بالطبع ليست الوسائل التي تستخدمها الإرساليات التبشيرية، مثل فتح المدارس وإنشاء المستشفيات، وملاجىء للأيتام، وتأسيس معاهد التبشير، وزيارة المبشرات للنساء في البيوت!!.

أما الفصل الثالث فيتناول (الإسلام في بلاد الترك العثمانية) مستعرضاً تقرير القسيس (أناتوليكوس)، الذي لخص فيه أعمال وحركة التبشير في بلاد الترك العثمانية، مشيراً على، وجه الخصوص، إلى «أن الكتاب المقدس راجت نسخ ترجمته التركية رواجاً حسناً» ص 90. كما أشار التقرير إلى أن هناك عقبات تقف في طريق التبشير في سوريا وفلسطين، وقد أرجع بعضها إلى الحكومة، والبعض الآخر إلى حالة هذه البلاد الدينية، حيث تعج بالمذاهب المختلفة، وأن الدين فيهما مرتبط بالسياسة. ثم عدد أهم الوسائل التي كان يستخدمها المبشرون لتذليل تلك العقبات وقد تمثلت في الآتي:

(1) توزيع نسخ الكتاب المقدس.

(2) التبشير في مستشفيات المبشرين ومستوصفاتهم.

(3) فتح المدارس والكليات وقبول أبناء المسلمين.

(4) زيارة المبشرات لنساء المسلمين في المنازل.

(5) توزيع الكتب والمؤلفات التبشيرية مجاناً.

وعلى الرغم من تعدد هذه الوسائل التي كان المبشرون يستخدمونها وتنوعها بهدف التبشير بين المسلمين وتنصيرهم، فإن خاتمة التقرير كانت صريحة في رصد خيبة الأمل وإنّ السؤال عن نتائج مجهودات مبشري المسلمين بالنصرانية في سوريا وفلسطين لا يجد «جواباً غير القول بأن الله وحده هو المطلع على مستقبل أعمالنا بين المسلمين وعلى نتائجها»، وإنّ تصفح الإحصائيات تبين «أن عدد المسلمين الذين تنصروا وتعمدوا هو عدد غير سار وغير مرضٍ، إلا أن هذا العدد مهما يكن قليلاً بذاته فإن أهميته أعظم مما يتصور المتصورون» ص 93.

ثم انتقل الحديث إلى التبشير في الجزيرة العربية والإشارة إلى تقرير القسيس يانغ الذي أدرك أهمية قول المبشر (وليم جيفورد بالكلراف) وفحواه أنه «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه» ص 94.

ثم أشار الحديث إلى كتاب (مهد الإسلام) الذي ألفه القسيس (زويمر) رئيس إرسالية التبشير في البحرين، والذي أتى فيه على ذكر إرساليات التبشير في جزيرة العرب مثل إرسالية التبشير العربية التي تأسست سنة 1889 م وهي تابعة لكنيسة الإصلاح الأمريكية، وقد انتشرت في البصرة والبحرين، ولها في البحرين، خمسة مبشرين، منهم طبيبان وامرأتان، ولها في البصرة أربعة مبشرين أحدهم طبيب، وفي (الشيخ عثمان)(*) إرسالية تبشير دانماركية كان سلطان (مكلا)(*) طردها من بلاده، وتوجد في الجزيرة إرسالية أخرى تمدها جمعياتها بالمال والإعانات» ص 95 ـ 96. وقد ذكر القسيس (زويمر) في مؤلفه السالف ذكره النفقات الجسيمة التي تتكبدها إرساليات التبشير في جزيرة العرب والمرتبات العالية للمبشرين والموظفين وبائعي الكتب التي تساوي ثلاثة أضعاف مرتبات أمثالهم في الهند.

ومحصلة كل هذا كما يوضح القسيس (زويمر) لم تتجاوز القول بأن «المبشرون في بلاد العرب اتخذوا لهم مراكز تمهد لهم سبيل التوغل في داخل الجزيرة» وأنّ المرضى من سكان هذه البلاد «يشدون الرحال من أصقاع بعيدة إلى مستشفيات المبشرين في الموصل وبغداد والبصرة والبحرين والشيخ عثمان وعدن» وأنّ «التعليم المدرسي والتربية الأخلاقية اللذين يعنى بهما المبشرون قد أسفرا عن نتائج جمة وأثمرا ثمرات نافعة في الأطفال والمراهقين على السواء»!! ص 96 ـ 97.

بل إن تقييم نتائج أعمال المبشرين في بلاد العرب التي وصفت بأنها أعمال خيرية، جاء على نحو يؤكد خيبة المسعى. حيث يقول هذا التقييم:

(*) الشيخ عثمان اسم مكان في جوار عدن. والمكلا ثغر في حضرموت شرقي عدن.

«إن من المتعذر تعيين نتائج هذه الأعمال الخيرية، إلا أن ما يدعو إلى الاغتباط والسرور، أننا اقتطفنا ثمرات أعمالنا في كل منطقة من مناطق التبشير» ص 98، وقد تمثلت هذه الثمرات في الاهتمام الحقيقي بالتعاليم النصرانية وبيع ألوف من نسخ الكتاب المقدس، وكميات وفيرة من الكتب والكراسات والمجلات، وزيادة عدد المترددين من المرضى على مستشفيات المبشرين. أما عن تنصير المسلمين في مناطق التبشير وعددهم، فلا شيء يذكر، ولا أرقام رصدت، كما كان الأمر في تقارير أخرى.

وتتحدث بقية صفحات كتاب القسيس (زويمر) عن التبشير في فارس (إيران) من خلال تقرير وصف بأنه «لا يختلف عن التقارير المتعلقة بتبشير البلاد العثمانية من حيث قلة مادته» وعلى الرغم من الجهد الذي بذلته إرساليات التبشير في بلاد فارس التي صارت أبوابها ـ كما يقول التقرير ـ مفتوحة للمبشرين بالإنجيل أكثر من غيرها، إلا أن «عدد المتنصرين لا يزال قليلاً» وإن كابر كاتب هذا التقرير في قوله بأن هناك «جمعيات صغيرة مسيحية (منتشرة في كل مكان وصل إليه المبشرون) اندمج فيها المتنصرون الفارسيون من نساء ورجال» وأن «عدداً عظيماً من المسلمين ينتمي إلى النصرانية سرا» ص 100..

أما عن الوسائل التي استخدمها المبشرون في بلاد فارس فلم تخرج عن دائرة الإرساليات الطبية من نساء ورجال، ورحلات المبشرين إلى الدواخل، والأعمال النسائية بالاحتكاك بالمسلمات، والدخول مع المسلمين في مناقشات دينية، ونشر الإنجيل، وسائر كتب التبشير باللغة الفارسية، والاعتناء بتعليم الذين تنصروا في المدارس التبشيرية خاصة في طهران وتبريز.

أما عن تاريخ التبشير في صومترا فقد تضمنه تقرير القسيس الألماني (سيمون) الذي أشار إلى عدد من الجمعيات التبشيرية منها جمعية المبشرين الألمانية التي تأسست سنة 1871، ولجنة تبشير جاوا التي تكونت سنة 1860. وبعد تقرير هذا القسيس عن نتائج تبشير المسلمين فإن أكثر التقارير التي سبق عرضها مبالغة في بيان أعمال المبشرين المقرون بلغة الأرقام، فقد ذكر أن

فروع جمعية نيس الألمانية الأربعة، الخاصة بتبشير المسلمين وحدهم، «قد تمكنت من تنصير 6000 مسلم ولديها الآن 1150 مسلماً في دور التجربة» ص 103، وأن «ميل المسلمين إلى النصرانية قد ظهر جلياً وقوي تياره، واتفق أنه في بعض الأوقات يتنصر العريس وقرينته المسلمة في وقت واحد»!! ص 104. كما أشار التقرير إلى الوسائل التي تقرب بها المبشرون إلى المسلمين وهي المدارس والإرساليات الطبية التي يصفها صاحب التقرير بأنها «مثل الشوك في أجسام زعماء المسلمين».

أما عن التبشير في جزيرة جاوا، فقد تركز في ذكر عدد المبشرين بها الذي بلغ «46 مبشراً و150 مساعداً لهم، و20 من مجموع هؤلاء اختصوا بتبشير المسلمين دون غيرهم، وفي الإحصائيات أن عدد المسلمين المتنصرين بلغ 1800 شخص» ص 105.

بهذا التقرير ختم التلخيص لما جاء في كتاب (العالم الإسلامي اليوم) الذي نشره القسيس (زويمر) وبعض زملائه، والذي يعد من الكتب المبكرة التي تناولت إرساليات التبشير بين المسلمين، ونتائج أعمال المبشرين في بعض البلاد الإسلامية، قدمت هذه النتائج من خلال تقارير وبحوث تفاوتت في درجات موضوعيتها وصحة معلوماتها، وكشفت عن تعصبها الديني البغيض الذي دفعها إلى طرح أرقام وأعداد لا يقبلها رجل الشارع، بَلْهَ الحصيف.

أما الصفحات (106 ـ 130) فقد تناولت الحديث عن مؤتمر ادنبرج الذي عقد في شهر سبتمبر 1910 «وكان للمسائل الإسلامية حظ كبير من مداولات أعضائه، بل إن لجنتين من أهم لجانه تفرغت إلى البحث في أمر الإسلام والمسلمين، وقد نشرت أعمال هذا المؤتمر ومناقشاته في تسعة مجلدات» ص 106.

ويذكر الأستاذ الخطيب واليافي أنهما لم يتمكنا من الحصول على هذه المجلدات، ولكنهما عثرا على مجلدات ثلاثة، تكلمت عن هذا المؤتمر، هي مجلة الشرق المسيحي الألمانية، التي تصدرها جمعية التبشير الشرقية الألمانية منذ سنة 1910، ومجلة العالم الإسلامي الإنجليزية المعروفة، ومجلة إرساليات

التبشير البروتستانتية التي تصدرها جمعية التبشير في مدينة بال في سويسرا.

بالنسبة للمجلة الأولى، استعرض المترجمان مقالين، الأول بعنوان (الشرق المسيحي وإرساليات تبشير المسلمين)، أوضح فيه كاتبه أن أعمال التبشير قد ازدادت أهمية بين مسلمي البلغار، وبخاصة فيه عقب تأسيس المدرسة الدينية الإسلامية ونتيجة لنشاط القسيس (افتارنيان) وأعماله التي استهدفت مقاومة الإسلام. وهذا يبرهن ـ في نظر المجلة ـ «على أنه أزف الوقت الذي يزعزع فيه الإسلام من أركانه وينشر الإنجيل بين الشعوب الإسلامية» ص 108.

أما المقال الثاني فقد كان بعنوان (دخول التبشير العام في طور جديد) أبان فيه كاتبه عن ارتقاء وتطور في أعمال المبشرين واستخدم لغة الأرقام حيث أشار إلى عدد المندوبين الذين حضروا مؤتمر أدنبرج وهم 1200 مندوب بينهم 502 من الإنكليز، و505 من الأمريكان، و98 من الألمان والباقون يتكلمون لغات مختلفة. كما قدم صاحب المقال إحصائيات عما أنفقته في السنة إرساليات التبشير الإنكليزية والإيرانية، وجمعيات التبشير الأوسترالية والإفريقية والآسيوية والهندية وجمعيات التبشير البروتستانتية في باقي القارة الأوروبية وهو 3 ملايين جنيه، وإحصائيات أخرى عن عدد جيش المبشرين البالغ 98,388 مبشراً، تعضدهم لجان يبلغ عدد أعضائها 5 ملايين ونصف المليون. فضلاً عن تقديمه إحصائيات عن عدد النساء والرجال الوطنيين وغير الوطنيين من موزعي التوراة، الذين يشتركون في التبشير والوعظ، وعدد المعاهد الكنسية، وعدد إرساليات التبشير العامة التي في الدرجة الثانية، وعدد الأساتذة والتلاميذ الذين هم تحت إشراف المبشرين، وعدد المدارس الدينية التي تقوم بتعليم لاهوت النصرانية وتخريج المعلمين والمبشرين فيها، وعدد المدارس الثانوية والابتدائية التي تهيمن عليها مقروناً بعدد تلاميذها، وعدد مدارس الأطفال التي يديرها المبشرون مقروناً بعدد تلاميذها، وعدد مدارس رياض الأطفال التي يديرها المبشرون مقروناً أيضاً بعدد الأطفال الذين يرتادون هذه المدارس، وعدد المستشفيات التي أسستها الإرساليات، وعدد الصيدليات

وزبائنها وما لديها من مجالس طبية وجمعيات للممرضات، وعدد ملاجىء الأيتام وملاجىء البرص من الكبار والأطفال، وعدد مدارس العميان ومعاهد الإسعاف ومستوصفات مرضى الأفيون وملاجىء الأرامل.

ويذكر صاحب المقال أرقاماً مأصولة خيالية رصدت في سنة 1902 ـ أي قبل انعقاد مؤتمر أدنبرج بثماني سنوات ـ بقصد لفت الانتباه نحو الجانب الإنساني في أعمال الإرساليات والمبشرين، وتوضيح إنسانية أهداف التبشير بوجه عام.

ثم يقدم في خاتمة المقال، مقارنة بين إحصائيات عام 1902، وبين ما وصل إليه إحصاء سنة 1910، ليقف القارىء من خلال ذلك على أن هناك ارتقاء باهراً في مجال التبشير (ص 112). بعد ذلك يستعرض المترجمان ما جاء في مجلة (العالم الإسلامي) الإنكليزية التي يتولى إدارتها القسيس زويمر. وهو جملة من الأقوال ضمتها مقالة المستر تشارلز وطسون بعنوان (العالم الإسلامي) أكد فيها اهتمام مؤتمر أدنبرج بالمسائل الإسلامية، موضحاً أن المؤتمر تألف من ثماني لجان، وأن اللجنة الأولى منها اختصت بالتوسع في بحث المسائل الإسلامية من الوجهة الخارجية وأن مهمة اللجنة الرابعة هي إيجاد أرضية مشتركة بين المبشرين في أعمالهم، واختيار خطة «الهجوم أو الغارة» على العالم الإسلامي. وقد أعدت هذه اللجنة تقريراً يتضمن إحصاء بعدد المسلمين، ومستوى ارتقائهم في كل من جزائر ماليزيا والهند الهولندية، إذ لوحظ أن عدد المسلمين يزداد فيهما يوماً بعد يوم، بقدر ما ينقص من عدد الوثنيين، في حين أن فروع اللجنة أوضحت في تقاريرها عن حال الإسلام في الشرق الأدنى وآسيا الوسطى: «إن المبشرين تعذر عليهم الخوض في المسألة الإسلامية»، أما عن حالة الإسلام في أفريقية فإن تقرير اللجنة يؤكد «إن الموقف فيها صار حرجاً، لسرعة تقدم الإسلام من مركزه الواسع في الشمال ومعاقله التي في السواحل إلى الجنوب والغرب الإفريقي» ص117. ويتحدث المقال عن أعمال اللجان الثمان، التي منها ما استهدف المسائل الإسلامية مباشرة، والبحث في الإسلام بصراحة، وفيها ما تناول المجهودات التي يبذلها

المبشرون لتنصير المسلمين، والوسائل المختلفة التي تمكنهم من تحقيق أهداف التبشير، وعلاقة إرسالية التبشير بالإسلام.

بعد ذلك استعرض المترجمان أقوال المجلة السويسرية من خلال عدة مقالات كتبها المستشرق الأستاذ (شلاتار) صاحب التقرير المقدم إلى مؤتمر أدنبرج، تركزت جميعها في المناداة بضرورة إعداد الوسائل الكفيلة بتوحيد أعمال التبشير بين الإرساليات، التي تسعى لنشر النصرانية، وضرورة تضافر المبشرين وتعاونهم «لتكون ثمرات مجهوداتهم، وهم متوحدون، أربعة أمثالها وهم متفرقون» ص 123. ولتوضيح هذه الفكرة استشهد كاتب المقالات بحوادث تبرز نجاح المبشرين في أعمال مشتركة في مناطق مختلفة من العالم، مشيراً إلى «ما لهذا التضامن والاشتراك من المحاسن والتأثير في جمع الكلمة» ص 124.

وأخيراً تلخص خاتمة هذا الفصل نتائج مؤتمر أدنبرج التي تركزت في تأليف «لجنة لمواصلة الأعمال التي بدأ بها، وعمل لها فروع كثيرة، بعضها للإحصائيات، وبعضها للنشر والمطبوعات، والبعض للتربية والتعليم، وآخر لحسم المشاكل بين المبشرين وواحد لدرس العقبات التي تحول دون نشر التبشير بين المسلمين» ص 128 ـ 129. أما الصفحات (131 ـ 140) فقد تحدثت عن «المؤتمر الاستعماري الألماني» من خلال المقالة التي نشرتها المجلة السويسرية ـ بوصفها ذات شأن ـ عن موقف الإرساليات التبشيرية في هذا المؤتمر، التي كتبت بقلم (م. ك. أكسنفلد) صاحب التقرير عن الفرع المختص بالإسلام في المؤتمر، وهو أيضاً سكرتير جمعية التبشير في برلين. والمقالة في مجملها استعراض لانطباعات صاحبها عن المؤتمر الاستعماري الذي امتاز في نظر كاتبها ـ «بميزتين: الأولى أنه بحث في الشؤون الصناعية والاقتصادية، والثانية إجماعه على وجوب ضم المقاصد السياسية والاقتصادية إلى الأعمال الأخلاقية والدينية في سياسة الاستعمار الألماني» ص 133 ـ 134. بمعنى آخر أن المؤتمر الاستعماري الألماني أكد على «أن نمو ثروة الاستعمار متوقف على أهمية الرجال الذين يذهبون إلى المستعمرات، وأهم وسيلة

للحصول على الأمنية، إدخال الدين المسيحي إلى هذه المستعمرات»!! ص 134.

كما أبانت المقالة أن أعضاء هذا المؤتمر بحثوا في شؤون تتعلق بالتبشير، وأن المبشرين اشتركوا في المداولات، عندما أخذ المؤتمر يبحث في أعمال فرعه الرابع، المخصص للنظر في المسألة الإسلامية!! حيث أفاضوا «وتوسعوا في القول حتى خيل للجميع أن المؤتمر الاستعماري تحول إلى مؤتمر تبشير» ص 134 ـ 135. وهل ثمة اختلاف في الأهداف والوسائل!!.

ولعل أهم ما في هذه المقالة إشارتها إلى ذلك الاختلاف الذي حدث بين المبشرين، وأعضاء المؤتمر الاستعماري، في وجهة النظر حول الإسلام، فالطرف الأول لفت الأنظار إلى الخطر الإسلامي في المستعمرات الألمانية بأفريقية، وأبان الطرف الثاني حقيقة علاقة الحكومة، وإرساليات التبشير بالسياسة الإسلامية، مشيراً إلى الخطر الإسلامي الذي صار أمراً معروفاً عند الجميع، مطالباً بضرورة قيام الحكومة «بتربية الوطنيين المسلمين في المدارس العلمانية، ما دام هؤلاء المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية» ص 136.

ثم أوردت المقالة ما جاء في قرار المؤتمر الاستعماري من توصيات تتعلق بالإسلام والمسلمين، حيث ينصح الحكومة الألمانية بزيادة الإشراف والمراقبة على أدوار حركة اتقاء الإسلام، الذي يتهدد نمو المستعمرات الألمانية بخطر عظيم، «ويشير على الذين في أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام!!... وأن الخطر الإسلامي يدعو إلى ضرورة انتباه المسيحية الألمانية لاتخاذ التدابير ـ من غير تسويف ـ في كل الأرجاء التي لم يصل إليها الإسلام بعد»!! ص 137 ـ 138.

واختتمت المقالة بالإشارة إلى أن مجلة العالم الإسلامي الإنكليزية نشرت بعض الفقرات، من خطاب الأستاذ (باكر)، الذي ألقاه في المؤتمر الاستعماري الألماني، وخاصة التي تطالب الحكومة الألمانية بانتهاج سياسة موطدة الأركان في معاملة مسلمي مستعمراتها. أما الصفحات (141 ـ 207) فقد استعرضت ما تناوله مؤتمر لكنو بالهند الذي عقد عام 1911 م، وذلك من

خلال مقدمة المجلة الفرنسية السابق ذكرها التي أشارت إلى أن مبشري البلاد الإسلامية من البروتستان قد عقدوا مؤتمرهم الثاني العام في مدينة لكنو يوم 21 يناير سنة 1911 م أي بعد خمسة سنوات من انعقاد مؤتمرهم الأول بالقاهرة الذي سبق الحديث عنه.

وقد وضحت المجلة في بداية حديثها عن هذا المؤتمر أن المشتركين فيه أبدوا ارتياحهم لما ناقشه مؤتمر أدنبرج بخصوص مقاومة الإسلام!! ودراسته لوسائل مناضلته من كل الأوجه، ورأوا في ذلك نجاحهم. ثم استعرضت برنامج مؤتمر لكنو والترتيبات التي اتخذت بشأن انعقاد جلساته التي امتدت لمدة أسبوع ـ في باحة إحدى المدارس البروتستانتية الخاصة بالبنات، غطت جدرانها «بالخرائط والإحصائيات التي يتبيَّن منها مبلغ اتساع نطاق الإسلام وارتقائه وتقدمه في الأيام الأخيرة» ص 143.

وبينت المجلة أنه قد اشترك في هذا المؤتمر 168 مندوباً و 113 مدعواً من 54 جمعية تبشيرية، على رأسهم القسيس (زويمر) الذي كان رئيس المؤتمر ومديره الروحي، إلى جانب بعض الشخصيات العلمية والمتنصرين!! في حين «منع الصحفيون الإنكليز والأمريكان عن حضور جلسات المؤتمر، ولم ترسل لهم مذكرته إلا بعد أن عنيت لجنة القرارات بتنقيحها» ص 144 ـ 145.

اشتمل برنامج مؤتمر لكنو على ثلاثة أمور:

(1) درس الحالة الحاضرة.

(2) استنهاض الهمم لتوسيع نطاق تعليم المبشرين والتعليم النسائي.

(3) إعداد القوات اللازمة ورفع شأنها.

أما البرنامج الذي عرض على المؤتمرين فقد تكوَّن من المواد التالية:

(1) النظر في حركة الجامعة الإسلامية ومقاصدها وطرقها والتأليف بينها وبين تنصير المسلمين.

(2) النظر في الانقلابات السياسية في العالم الإسلامي وعلاقاتها بالإسلام ومركز المبشرين.

(3) موقف الحكومات إزاء إرساليات تبشير المسلمين.

(4) الإسلام ووسائل منع اتساع نطاقه بين الشعوب الوثنية.

(5) تربية المبشرين على ممارسة تبشير المسلمين والمزايا النفسية اللازمة لذلك، والبحث في الدروس الإعدادية، ودروس التبشير، وتأليف الكتب للمبشرين والقراء المسلمين.

(6) حركات الإصلاح الديني والاجتماعي.

(7) الارتقاء الاجتماعي والنفسي بين النساء المسلمات.

(8) الأعمال النسائية.

(9) القرارات العملية وتقدير اللجان المالية للمطبوعات والمنشورات.

افتتح القسيس زويمر مؤتمر لكنو بخطبة تكلم فيها على المسائل الإسلامية التي تناقش فيها الأعضاء، وقد قسمها إلى أربعة أقسام هي:

(1) الإحصاءات الإسلامية التي تناولت عدد سكان المسلمين ونسبة زيادتهم السنوية في العالم.

(2) الإنقلابات السياسية التي حدثت في العالم الإسلامي، وقد شكر الله على حدوث هذه الإنقلابات في غرب آسيا وأفريقية.

(3) الانقلابات الاجتماعية والفكرية المتمثلة في «ثلاثة نهضات إصلاحية الأولى إصلاح الطرق الصوفية، الثانية تقريب الأفكار من الجامعة الإسلامية، الثالثة إفراغ العقائد والتقاليد القديمة في قالب معقول» ص 154.

(4) الخطة التي اتبعتها كنائس أوروبا وأمريكا بعد مؤتمر القاهرة، متمثلة في الكتابات التي نشرتها الجرائد، والتي أبانت عما يجب أن يعمله المبشرون في العالم الإسلامي، لعل من أهمه تصنيف الكتب الكثيرة التي تبحث في المعضلة الإسلامية من كل أوجهها.

لقد تحدث القسيس زويمر عن كل من هذه الأقسام باستفاضة مع توضيحات المتحدث على لغة الأرقام وتقديم الأمثلة الحية.

وتحت عنوان (التنظيم المادي لإرساليات التبشير) تناولت الصفحات 205 ـ 244 ـ جوانب هذا التنظيم الذي جاء مقروناً بأرقام الإيرادات، والمبالغ

الهامة التي ترد عليها وتصرفها في سبيل التبشير، والاكتتابات التي تأتيها من البلاد الأجنبية، والمبالغ التي يجمعها المبشرون أنفسهم، والفروع العديدة لجمع النقود، وهي لا تقع تحت الحصر (ص 206)، والنفقات التي تتكبدها في سبيل إدارة أمورها، وتحصيل تلك الاكتتابات والإيرادات، وللمبشرين الموجودين في غير البلاد الإسلامية، والتحكك بالإسلام كل سنة. وعادة ما كان ينتهي تقدير الجمعيات على الرغم من ذلك التنظيم المادي لإرساليات التبشير، بالقول: «إن أعمال التبشير في البلاد الإسلامية ما زالت صعبة وعرضة للنفقات الجسيمة» ص 207.

أو قولها: «ويتفوق المسلمون في أكثر الأقاليم على إرساليات التبشير في المال والنفوذ» ص 209.

وانصب الحديث في صفحات هذا الفصل على جمعية التبشير الكنسية الإنكليزية بوصفها أهم جمعية بروتستانتية. فقد مضى على تأسيسها 110 سنين ويدير أعمالها 154 أسقفاً وبلغت إيراداتها سنة 1410 عشرة ملايين من الفرنكات، واتسع نطاق أعمالها التبشيرية في فارس ومصر وشمال نيجيريا وجنوبها والسودان وفي أفريقية الشرقية وأواسطها وغربها.

ولخصت الصفحات 245 ـ 256 (مقاصد المبشرين وآمالهم في المستقبل) وقد تمثلت في إعداد المعدات لتوسع دائرة أعمال إرساليات التبشير «ريثما تشن الغارة على الأراضي الإسلامية المقفلة في وجهها، أو تتحفز لمنازعة الإسلام على البلاد التي ترسخت قدمه فيها» ص 245.

وفي هذا السياق ظهر في عالم المطبوعات مؤلفان يتعلقان بالغارات التبشيرية في المستقبل... أحدهما للقسيس زويمر، الذي يوجه مؤلَّفَه إلى الطلبة ويذكر لهم الأقاليم الخالية من المبشرين، والآخر بقلم المستر (جوردنر) السكرتير العام لجمعية الطلبة المسيحيين، بخصوص الأعمال التبشيرية في أفريقية الجنوبية» ص 246.

والكتابان استصراخ «بالمبشرين أن يسرعوا بأعمالهم ويبذلوا قصارى جهدهم... إذا كانوا لا يودون أن ينتشر الإسلام... وترسخ أقدامه» ص

254، ودعوة «للم شعث إرساليات التبشير وجعلها كتلة واحدة أمام البحر الإسلامي الطامي» ص 255.

أما الصفحات 257 ـ 286 فقد ضمت أربعة ملاحق:

الأول: نص افتتاحية العدد 6663 من جريدة (المؤيد) الصادر يوم الجمعة 9 جمادى الأول 1320 هـ/ 26 ابريل 1912 م بعنوان (نجوى إلى القراء) بمناسبة مقالات الغارة على العالم الإسلامي بقلم محب الدين الخطيب.

الثاني: نص افتتاحية العدد 6768 من (المؤيد) الصادر يوم الأربعاء 5/ رمضان 1330 هـ. وهو ترجمة مقالة انتقادية أنشأتها مجلة العالم الإسلامي الفرنسية بعنوان (حول الغارة على العالم الإسلامي).

الثالث: نص افتتاحية العدد 6770 من (المؤيد) بقلم محب الدين الخطيب بعنوان (جواب المؤيد على مقالة مجلة العالم الإسلامي).

الرابع: نص كلمة كاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان في أهمية هذا الكتاب.

ولعل خير ما نختتم به عرضنا لهذا الكتاب القيم نداء أمير البيان شكيب أرسلان الذي جاء في صيغة اقتراح بأن «يطبع منه ألوف من النسخ وعشرات ألوف، ويوزع على جميع العالم الإسلامي بدون استثناء ويقتنيه كل مسلم ذي حمية، ويقرأ منه الخطباء والمدرسون في الجوامع... ويجب أن يترجم هذا الكتاب إلى التركي والفارسي ولسان الأردو ولسان الملايو وجميع ألسنة الشعوب الإسلامية».

لقد مضى على طبعته الأولى (1350 هـ. ـ 1932) أكثر من ستين سنة وعلى طبعته الثانية (1387 هـ. 1967) أكثر من ربع قرن، وما أحوج هذا الجيل إليه والاطلاع عليه، وعالمه الإسلامي يتلقى الغارة تلو الأخرى، ويشهد الهجمات الشرسة من صليبية حاقدة.